

أوضاع ولاية افريقية، وبناء القصر الكبير في المستير
180 هـ / 796 م
نتائج وفاق

الملخص:

كان لهرثمة دورا هاما في تنظيم شؤون الجزء الغربي من الدولة العباسية بما في ذلك بلاد المغرب، وإصلاح الفساد الحاصل هناك، ونظرا للأوضاع غير المستقرة لجنوح أهلها للتمرد وعصيان أمرائهم والخوض في الفتن الداخلية، كل ذلك في وقت كانت فيه السواحل الإفريقية معرضة للمخاطر البيزنطية فكان اختيار القصر الكبير بتونس كأول منشأة دفاعية في إفريقية اختيارا سليما لمواجهة الأخطار البيزنطية المحيطة بهذه المنطقة حيث مكّنت من توفير مناخ عسكري يتعود عليه الناس في الدفاع الذاتي والإقليمي، وكان مركزا للحراسة والإنذار المبكر، وشكلا من أشكال التطوع في الرباطات لكونه جهادا في سبيل الله، وكانت تجمع الزكوات والصدقات للمرابطين، ومن هناك -أيضا- بثت العلوم العربية والشرعية ومظاهر الثقافة الإسلامية، ونشر المذهب المالكي، غير أن ما يلاحظ أننا لا نملك نصوصا محلية عن نظم الرباط والمرابطة الإفريقي.

الكلمات المفتاحية:

إفريقية، هرثمة، القصر الكبير، المنستير، الرباط.

**أوضاع ولاية افريقية، وبناء القصر الكبير
في المنستير 180 هـ / 796 م .
نتائج وآفاق**

**د لقبال موسى
أستاذ بمعهد التاريخ**

- بعض تيارات افريقية الاسلامية .

لم يستغل تيار حركة الفتح الاسلامي لبلاد المغرب الخلفاء ورجال السياسة وخدمهم ، بل استفاد منها أيضا رجال المذاهب الدينية ثم الفقهية الذين اجتهدوا لكسب بعض الشرائح الاجتماعية في البيئة المفتوحة ، في محاولة منهم لأرضاء ميولهم ، ونشر نفوذهم وتحقيق بعض ما يأملون .

- ودعاة المذهبية هم عنوان عن تيار تسرب الى المنطقة المغربية في بداية القرن 2 هـ / 8 م . بعد استقرار حركة الفتح ، وبدأ كثرة لاخلاص الدعاة وتفانيهم في نشر آرائهم المذهبية والسياسية بين جماهير تبدو شبه محايدة حتى الآن تجاه بعض ما ساد بلاد المشرق العربي من تيارات ومذاهب .

وما كان الأمر ليتم لدعاة المذهبية على النحو الايجابي الذي تحقق عليه فعلا - حيث ظهر تغيير في النظرة ، وفي الحدود السياسية والمذهبية والاقليمية ، بمقتضاه بقيت افريقية وحدها - ثغرا عباسيا ، لا يتجاوز نفوذ المسودة فيه أرجاء مدينة أربة في الزاب (1) - وما عداها توزعته امارات محلية ذات مذهبيات متنوعة ، - قلت ما كان الأمر ليتم كذلك - لو لم تصبح بيئة افريقية والمغرب مركز جذب ، وقرار عربي ، بل احدى مراكز الثقافة العربية الاسلامية النشيطة بفضل جهود الجند الفاتحين والمهاجرين ، والرواة والعلماء ، الوافدين والمحليين .

ولئن أفادت المنطقة المغربية من ثمرات الثقافة العربية الاسلامية فإن وضعيتها الأمنية ، وكذا علاقاتها بالخلافة الاسلامية ، قد تأثرت ، وذلك حينما بدأت هذه الأخيرة تبذل جهودا عسكرية مكثفة ضد القبائل غير السنية من صفرية واباضية .

وهكذا طرقت أرض المغرب الاسلامي ، جيوش كثيفة العدد من عرب الشام ، ومن مصر والعراق ، بعضها يتجاوز عشرات الآلاف ، مثل تلك التي صحبت كلثوما بن عياض القشيري ، وحنظلة بن صفوان الكلبي ، وأبا الأحوص العجلي ومحمد ابن الأشعث الخزاعي ، وآل المهلب الازدية ، وهرثمة بن أعين الهاشمي ومحمد ابن مقاتل العكي .

ان بعض هذه الجيوش خاضت في المنطقة معارك ضارية اتسمت ال حد ما بالحسم العسكري مثل معارك الاشراف ، ووادي سبو (بقدورة) والقرن ، والأصنام وطبنة وجندوبة .

ولأن المشكلة المذهبية والدينية عادة لاتحسمها القوة المادية وحدها فقد بقي التيار المذهبي الانفصالي قائم الذات ، ليعبر عن شخصية المغرب الاسلامي وعن شرائح قبلية في مجتمعه الجديد خاصة في تاهرت ، وتلمسان ، وسلجاسة وحتى في فاس الادريسية ، وفي قرطبة الأموية .
السنية ذات النظرة العدائية للعباسيين .

ومن ثم بقيت فوروات الجند محدودة الأطار ، مفتقرة دائما الى العنصر الشعبي الذي يحتضنها . ومن خلال النصوص تبدو الجماهير محايدة ولم تتورط في الفتن ، التي كان مآتها فيها يبدو - حساسية تاريخية بين مصرين عربيين اسلاميين كبيرين ، دأبت احدهما ، أي تونس ، على اشعال لهيب الثورة ضد الثانية ، أي القيروان نحو عشرين مرة (4) .

وابن عذارى المراكشي يقول بصدد ثورة ابن الجارود ما نصه « ولما قرب من القيروان فتحوها له فدخل أصحابه لايدافعهم أحد » (5) ومثل ذلك بالنسبة لرجال تمام التميمي الذي ثار ضد العكي (6) .

وأثناء حركة الصراع بين تونس والقيروان ، برز بوزن ثقل في مسيرة الأحداث ، دور طبنة قاعدة الزاب ، سندا للقيروان وللشرعية وحربا ضد الاستيلاء وشغب الجند ، ولأهميتها الاستراتيجية كثغر للولاية ، ولقوة حاميتها ، ولوقفها المنضبط تمكنت من دفع بعض عمالها الى أعلى مركز في السلطة ، وهو ولاية افريقية والقيروان وخضع لهذا التدرج في الترقى : الاغلب بين سالم التميمي ، والفضل بن روح المهلي ، والعلاء بن سعيد المهلي ، وابراهيم بن الأغلب .

والذي يلاحظ أنه على عكس تيار الاستيلاء ، الذي برر رجاله وجودهم ، بتنشيط حركة الجهاد البحري ضد الروم ، وحركة الكشف والبشير بالاسلام بين قبائل الصحراء ، حتى امتلأت أوقات الجند والعامّة بالشغاط ، ويترقب الجديد ، وباستطلاع أخبار البعوث ، فان تيار المذهبية والجند قد ملأ المنطقة حروبا وفتنا داخلية بين أهل الملة الواحدة ، فتسببا في تجميد حركة النشاط البحري ضد الروم ، وهو تقليد جرى به العمل في الولاية منذ عهد مبكر يعود الى معاوية بن حديج السكوني الكندي . فتعطيله لا يرضي طبعاً جمهور المتدينين ، ولا كذلك جمهرة من هؤلاء المتفعين بهذا النشاط العادي لقاعدة تونس البحرية . ولقد كان من أثر ذلك وجود فراغ في الوقت استغله الجند في الخوض في سياسة الولاية ، وفي قضايا السكان والأرزاق والعدل

والمساواة بين الجند في حاضرتي تونس والقيروان . وانتقلوا من الأقوال الى العمل العسكري لارغام ولاية القيروان على ترك المسؤولية .

ولقد كانت صورة ثورات الجند الخراسانية دائما الزحف ضد القيروان ، وطرد واليها الشرعي ، وتنصيب قائد الجند مكانه . والاستثناء الوحيد هو هرثمة بن أعين الذي استعفى من المسؤولية ، فأعفاه الرشيد ، ولم يعط الجند فرصة الاطاحة به كأسلافه (9) .

ولم تستقر الأوضاع الأمنية بنجاح ثورة ابن الجارود ، وساد الولاية فراغ سياسي هائل استغله بعض حكام الأطراف في اظهار سخطهم على العهد الجديد في القيروان ، فتناذروا للعمل المادي ضده ، حتى يرجع الى النظام والى الطاعة كان هذا على الأقل ، موقف عمال الأربس ، وتونس ، وميلة ، وطبنة . و واليها العلاء بن سعيد المهلبى ، هو الذي وضع حدا لآمال وطموحات قادة الخراسانية واضطر ابن الجارود تحت ضغط الظروف الى اخلاء القيروان طوعا ، ليحتلها بعده وينكل ببعض رجاله فيها ، العلاء بن سعيد ، وهذا قبل لحاقه بابن الجارود في طرابلس حيث استقر نائب هرقة ، يحيى بن موسى بناء على أوامر محددة .

وفي طرابلس وضع كل فريق موقفه ، ونال فيها بعد كل جزاءه ، فالعلاء كوفي، من طرف هرثمة ، ثم من طرف الرشيد بعد استقراره في مصر ، لمساهمة البناء في تحطيم سورة العصيان ، وابن الجارود ، أغذ في السير الى بغداد حيث كان ينتظره ، جزاء يناسب عادة أمثاله المغامرين محتا الاعتقال والاختفاء .

سياسة التقوى

دخل هرثمة بعد ذلك الى القيروان في ربيع الآخر 179 هـ 795 م ، وبدخوله تبدأ مرحلة جديدة في حياة ولاية افريقية طابعها الأول اشاعة جو السكون والاحسان الى الناس ، وتأسيسهم بعدما عانوا طويلا من الفتن والاضطراب (10) ، ولقد عبر ابن واضح اليعقوبي مولى العباسيين خير تعبير وأوجزه عن المهمة الشاقة والاستثنائية التي عهد بها الرشيد الى أكفأ رجاله ، وأخلصهم لقضية آل البيت ، وأحد رموز الحزب العربي ، هرثمة بن أعين الهاشمي عندما قال : « ان الرشيد أرسل هرثمة بن أعين الى الشام ومصر والمغرب يتقراها ويصلحها ، فلم يزل يمر ببلد بلد ، فيصلح ما يريد اصلاحه » (11) وبمعانية النص نخرج بالحقائق التالية :

أ - ان هرثمة كانت مهمته تغطي الجزء الغربي من الدولة العباسية الذي يتميز بأكثرية عربية قلقة ، وغاضبة بدعوى التضرر من سياسة العباسيين الموالية للأعجام . ولم تكن ولاية افريقية وبلاد المغرب ، الا حلقة أخيرة في العقد ، ومحطة نهائية للاستقرار والاختيار لتطرقها ، وكثرة مشاكل الجند الخراسانية فيها . وهم عرب أيضا أحسوا بأن العباسيين فطموهم عن السلطة ، وأبعدوهم عن ساحة المشرق لتهميشهم في كل ما يجري هناك لفائدة الفرس الخراسانية .

ب - وحسب مصطلح التقري ، فالمهمة لم تكن تعني سياسة الحرب فقط ، بل تشمل كذلك سياسة السلم ، من تنظيم حياة الولاية وسكانها وعلاقاتها ، واستكشاف رجالها وجهاتها ، وما تتميز به ، وكل هذا لوضع الحلول المناسبة ، لتبقى قوة في حد ذاتها ، ومصدر قوة مستديمة لمركز التوجيه والسيادة في بغداد . وما نجده في النصوص ، عن اعجاب هرثمة بن أعين بابراهيم بن الأغلب ، وتعيينه في الزاب ، ثم تزكيته كأكفأ قائد عباسي مخلص يسد ثغر ولاية افريقية كلها . وما تشير اليه بعض النصوص المحلية ، عن استشارة هرثمة للبهلول بن راشد في موضوع الرباط ، ومحاولته تقريب هذا الزاهد المشهور وربما غيره أيضا . لعل في هذه الاشارات وفي غيرها - ما يوضح عمق المهمة وسعة السلطة ، وشموليتها في عهد ولايته القصيرة .

ج - وعندما تقارن بين مدلول التقري كما حدد في المعاجم الفنية ، وبين ما جاء في النصوص خاصة نص اليعقوبي ، ولاسيما قوله « فلم يزل يمر ببلد فيصلح ما يريد اصلاحه » - تصل الى قناعه شبه كاملة بأن هرثمة كانت مهمته تنظيم شؤون الجزء الغربي من الدولة العباسية بما فيه بلاد المغرب ، واصلاح ما فسد من أموره ، وان سياسة بناء الرباط كانت احدى تدبيراته ووضع نواتها في ساحل مصر . ولم يكن القصر الكبير في المنستير الا حلقة منها . وهذا ما يفهم من النصوص اللاحقة التي تشير الى امتداد الربط من الاسكندرية بوابة بلاد المغرب .

الى طنجة على مضيق الزقاق ، كما تشير ضمن هذا الخط الساحلي الطويل الى ربط طرابلس ، والى قصور سفاقص (12) . وعندما اشرف على وضع نواة هذه السياسة الدفاعية الجديدة في ساحل افريقية استعفى من المهمة الشاقة ، فقبل استعفاؤه ، من أجل أن يواصل مهمته في قلب الدولة العباسية قائدا للحرس في بغداد ، قواليا لخراسان ، ثم قائدا للصوائف ، ثم أحد رجال المأمون الذين افتكوا السلطة في بغداد من يد أخيه الأمين .

واذا كنا لا نرى بأسا في استعفائه ، وهو في أوج انتصاره ، لاعتقاده بأنه أكمل مهمته ، نظير ما فعله من قبل زهير بن قيس اليلوي نائب عقبة عندما استعفى أيضا بعد تأديب كسيلة واليرانس في سهل همس ، فاننا لا نساير بعض هذه النصوص التي تصور هرثمة في صورة من استبد به القلق ، والهلوع من أوضاع افريقية ، لجنوح أهلها الى التمرد ، والى العصيان لأمرائهم ، ولخوضهم دون حرج في الفتن الداخلية ، وان هرثمة ، تأى بنفسه عن الاشتراك في اراقة دماء المسلمين في هذه البيئة المضطربة بالنزعات المذهبية وبالعصبيان القبلية ، وبطموحات قادة الجند الخراسانية في تونس ، هؤلاء الذين جعلوا الثورة ضد ولاية القيروان صناعة لهم ، ومركبا يمتطونه لأوهى الاسباب (13) .

أصول الرباط الافريقي

ان الذي يهمننا كمغاربة في كشف أعمال هرثمة عملاق عظيمان هما :

- استصفاء ابراهيم بن الأغلب كنوع من الارهاص بأهميته مستقبلا .

- وثانيهما ، تعميم سياسة الدفاع القطري عن السواحل الافريقية ببناء أقدمها وهو القصر

الكبير في ساحل المنستير 180 هـ / 796 م .

وهذه السياسة رعاها ابن الأغلب ، وعممها بنوه فيما بعد اعترافا بأهميتها ، وبفضل باعثها هرثمة . . وسلفه الأقدم التابعي الكبير عقبة بن نافع الفهري ، وأيضا موسى بن نصير الذي جمع رهائن البربر في طنجة للرباط وبهم نقل الحرب الى الجانب الآخر من العدو .

ولقد بذر عقبة حركة الرباط في العمق ، وعندما سيطر على أصحابه موضوع تقريب قاعدة القيروان من البحر ، « ليجمع أهلها الجهاد والرباط » . أجابهم « يأتى أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها صاحب البحر ، لكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا تقصر فيه الصلاة فأهلها مرابطون (14) .

ولقد كان عقبة على حق في رؤيته ، في هذا الوقت الذي كان فيه البحر للروم لا يجري السفين به - الا على الغرور والبر للعرب .

وفي بلاد المشرق ، أرسيت منذ وقت مبكر ، تقاليد المراقبة في شمال الشام واقليم الجزيرة ، وفي ارمينية واقليم ماوراء النهر، وفي السند أيضا، وتعهدتها التنظيم بضبط سياسات ثغرية هادفة لمنع تسرب غير المسلمين الى دار الاسلام سواء كانوا روما، أو تركيا، أو هندوا .

ومعنى ذلك ان هرثمة في جانب الرباط في افريقية ، لم ينطلق من فراغ ، ولم يتصرف على غير مثال . ونضيف ان فترة ولايته في افريقية ، كانت تتوافق مع عصر التركيز على سياسة الثغور مع الروم في المشرق من ناحيتين : الاولى، يرفع درجتها الادارية الى ولاية تسمى الثغور والعواصم ، والثانية بانتخاب أكفأ القادة الشجعان المجاهدين للاشراف عليها، وشحنها بالمؤن والفرسان والخيول، وترميم الحصون القديمة، وبناء حصون جديدة، ولقد بنى الرشيد نفسه من واقع خبرته بحرب الثغور بعض الحصون ، منها الهارونية، واذنه ، وطرسوس ، واستمر على نمط أسلافه في تدعيم دفاع الثغور واسنادها بالمهاجرين والمتطوعين والمقطعين أيضا (15) .

ولقد كان المسلمون يبذلون بسخاء، في سبيل الله لا أموالا، وخيولا وعتادا تقويه لحركة الرباط . ومن التعابير الشائعة جاء فلان يحمل حصنا أي عتادا وسلاحا . وعدت الخيل في المأثور العربي حصونا ومن ذلك أن رجلا قال لعبيد الله بن الحسن : إن أبي اوصى بثلاث ماله للحصون فقال اذهب فاشتره خيلا فقال الرجل : انها قال الحصون قال أما سمعت قول الأسعر الجعفي .

ولقد علمت على توقي الردي - ان الحصون الخيل لامدر القرى (16) .
ويشار هنا الى وصية ابي جعفر المنصور لواليه الأغلب بن سالم التميمي التي تركزت على : العدل في الرعية ، وحسن السيرة في الجند، وتحصين مدينة القيروان وخندقها وترتيب حرسها، ومن يترك فيها اذا رحل الى عدوه (17) .

ومن هذه الوصية يتبين الباحث انشغال بال المنصور، بسبب اضطراب أوضاع ولاية افريقية وبلاد المغرب نتيجة ثورة صقرية ثلمان بقيادة أبي قره اليفرني ، ثم شغب الجند الخراسانية الذي

تسبب في تجميد نشاط قاعدة تونس البحرية في ميدان ، الجهاد ضد الروم ، وهو ما يعني بقاء سواحل الولاية مهملة ، وغفلا من أية حراسة فضلا عن سياسة دفاعية محكمة تحمي القيروان .

ان هذه المعطيات وهذه السوابق التاريخية مثلت تراثا ضخما ، ومصدرا استمد منه هرثمة زاده وأساس تحركه المستقبلي منذ ان دخل ساحل الأسكندرية منطلقا منها نحو طرابلس ، التي أشير اليها كمرحلة أخرى في تنفيذ سياسة التحصين في صميم ولاية افريقية وعلى هوامشها مما يلي الأسكندرية فهرثمة بعد الاستطلاع والتقرى — بنى سور طرابلس من جهة البحر، لأنه كان يمثل ثغرة (19) . وقد سبق واستغلت هذه الثغرة أثناء مسيرة الفتح في المراحل الكشفية الاولى ، كما يكون قد تعهد الجوانب الأخرى من سور المدينة ، تحسبا لما قد يحدث مستقبلا من حركات عدائية من جهة روم صقلية و مالطة وسردينية وفرنجتها .

ولابأس بأن يكون هرثمة بعمله هذا قد مهد لقيام نواة رباط طرابلس مستقبلا بدليل اشارة النصوص يعد هذا العصر الى مجموعة ربط طرابلس (20)، وكذا مجموعة محارس صفاقس (21)، كما أشرنا .

وكعادة بعض النصوص المحلية المغربية مع قادة الفتح ، مثل عقبة المستجاب ، انفردت بتصوير هرثمة على هيئة رجل يؤمن بالشورى ، ويعتصم بالرأي العام من خلال رأي العلماء والصلحاء والزهاد الذين كانوا بحق يمثلون صدى لاتجاهات الرأي العام في الولاية وفي حواضرها .

وركزت من بين هؤلاء الزهاد على اليهلول بن راشد عابد زمانه ، وذكرت أن هرثمة ربما في محاولة منه لرد اعتبار هذا الصالح الذي ناله عقاب ظالم من العكي — أرسل اليه نائبه — زكرياء بن قادم ، ليأخذ رأيه فيما اعتزم بداية تنفيذه في ساحل المنستير وليشرح له جهود هذا القائد ، في مجال تحصين التخوم خاصة في أرمينية ، وان اليهلول استحسن المشروع وحث عليه ، وفضله عما سواه بقوله لمخاطبة ، ماذكرت شيئا ألا والمنستير أفضل منه (22) . ولتأييد فكرة احترام هرثمة للعلماء والزهاد تذكر هذه النصوص أيضا محاولة هذا القائد تكريم اليهلول بن راشد بالنزول لتحيته وتمكينه من أموال يوزعها بمعرفته على المحتاجين والفقراء لولا امتناع هذا الزاهد الافريقي المشهور (23) .

وفحوى رد البهلول بن راشد الرعيني ، هو اشارة استحسان من بعض وجوه القوم وعقلائهم لبعث مشروع عام النفع كهذا في المنستير، تحيا بمقتضاه فريضة الجهاد الشعبي في سبيل الله ، بعد ان انصرف الجند الخراسانية في قاعدة تونس عن تنشيط حركة الجهاد ضد قلاع الروم كما سلف .

واختيار منطقة الساحل لزرع أول منشأة دفاعية في عمق ولاية افريقية، وهي القصر الكبير، اختيار موفق، لم يخل من مغزى، فالأخطار من هذه الناحية كانت محققة ولملموسة منذ عهد طويل بل وماثلة باستمرار بسبب قرب سمتها من مراكز الأخطار.

ولطالما تعرضت هذه المنطقة أثناء مسيرة الفتح الاسلامي، وحتى بعد استقراره لغارات بيزنطية مفاجئة من مراكزها في البحر المتوسط خاصة من صقلية التي ظفرت في بعض العهود البيزنطية بمركز ممتاز في استراتيجية الدفاع والهجوم، ظهر هذا عقب التجأ فطاطز الثاني إليها بعد هزيمة ذات الصواري 34 هـ، أو ساحل فوتيكية، حيث اتخذها مقرا مؤقتا له، وكذلك صارت ملجأ لبقايا السيوف من الروم والافارقة بعد سقوط قرطاجنة، وتمصير تونس (24). اذا باقامة منشأة الرباط يكون هرثمة قد نفذ فعليا في ساحل ولاية افريقية، نفس السياسة التي أقيمت، وجرى اختيارها في أكثر من منطقة ثغرية في بلاد المشرق الاسلامي وأيضا أضاف الى قاعدة تونس البحرية قاعدة أخرى شعبية أو رسمية تسندها في مهامها الدفاعية.

ولقد اثبتت الأيام والحوادث، مدى فائدتها في اتاحة المناخ لتربية عسكرية يتعود الناس من خلالها على القيام بأعباء الدفاع الذاتي، والاقليمي، وكذلك في ايجاد مظاهر استعداد دائم للحراسة، وللانذار المبكر، والتجمع السريع، وأيضا في تشجيع حركة التطوع لحياة الرباط باعتبارها ملونا من ألوان الجهاد في سبيل الله كما جاء في القرآن الكريم، «يأيها الذين آمنوا صبروا. وصابروا وربطوا»، «ومن ربط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم».

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل أن عمل هرثمة، غدا سياسة مرسومة بعده عممتها الدولة واشرفت عليها، وساهم الشعب في تنشيط حركتها عن طريق الأغنياء والموسرين الذين بذلوا بسخاء لحياة الرباط. ووظفوا أموالهم في اقامة كثير من هذه القصور الصغيرة فأصبحنا في فترة تالية نسمع ونقرأ عن ربط سهل، وزباد، وطارق، وابن حيشي وهي مؤسسات خاصة، بجانب قصر الرباط، والقصر الكبير، وقصر الطوب، ولطة وغيرها. وهي مؤسسات اشرفت عليها الدولة، أي رسمية(25).

* - رباط القصر الكبير... من خلال نصوص الجغرافيين المسلمين - اليعقوبي - ابن حوقل - البكري - ولدينا نصوص وصفية لساحل ولاية افريقية، بما فيه من قصور ومحارس نركز من بينها على ماورد في اليعقوبي، وابن حوقل، والبكري. وهذا لاعتبارات هي على التوالي: القرب النسبي من عصر تأسيس منشأة الرباط، ثم صيررته مركزا هاما لمعارضة الدولة القائمة، لا في خدمتها، وأخيرا نضج تقاليد الرباط، وقوة تأثيره الى حد الاشراف على تأسيس كيانات سياسية، واسقاط أخرى في غير ساحل افريقية في القرن 5 هـ / 11 م.

واليعقوبي، من بين الجغرافيين، يمتاز في كتابة «البلدان» بميزتين اضافيتين هما الأقدمية تاريخيا، والقرب النسبي من وجهة النظر الرسمية العباسية فهو مولى العباسيين يقول في وصفه «ومما يلي القبلة من القيروان بلد يقال له الساحل ليس بساحل بحر كثير السواد من الزيتون

والشجر والكروم ، وهي قرى متصلة ببعضها في بعض كثيرة ومن بلد الساحل الى اسفاقص ، وهي على ساحل البحر يضرب البحر المالح في سورها وهي آخر بلد الساحل ، ومن اسفاقص الى بنزرت مسيرة ثمانية أيام ، وفي جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العباد والمرابطون » (26). ومن خلال هذه الفقرات نتبين :

أ- قدم مصطلح : الساحل التونسي - وامتداده جغرافيا حسب هذا النص الى مدينة اسفاقص .

ب - ووجود عدة حصون وربط متقاربة تمتد من اسفاقص الى بنزرت ، وقد أكد حقيقة وجود ربط اسفاقص فيما بعد : ابن حوقل (27).

ج - لم يرد ذكر اسم القصر الكبير، وقصر سقانس المجاور له ، وهذا أيضا ينطبق على بقية القصور والمحارس التي شادها أمراء بني الأغلب ، بسوسة ، أوبجوارها مثل قصر الرباط ، وقصر الطوب القريب منه (28). وقصر لمطة كذلك .

د - أما أسباب التركيز على منطقة الساحل لانشاء القصور، فهي انها كما تبدو الآن ، نقطة عمران كثيف ومستبحر، خيراتها كثيرة، وقراها عامرة ومتصلة ببعضها، وهي كذلك قريبة نسبيا من مراكز السلطة في القيروان أو في رقادة حيث تعتبر منفذهما على عالم البحر، ولهذا وصفت المنستير قديما : بمحرس القيروان ، بل ان سوسة والمهدية وتونس كلها عرفت في النصوص أحيانا بساحل القيروان (29).

- وبهنا ان عدم ذكر اسم القصر الكبير في نص اليعقوبي ، لايعني أنه صفي أو تضاءلت قيمته ، أو لم يبق عامرا شامخا كأكبر قصور الولاية بدليل ما ورد عن نشاطه ، وعن بعض تقاليده وتقاليد قصر شفانس المجاور له في النصوص التالية لعصر اليعقوبي ومن بينها ما ورد عند ابن حوقل النصيبي مولى الفاطميين في قوله « وبين المهديّة وسوسة رباط يسكنه أمة من الناس على مر الأيام والساعات يعرف بالمنستير، ويقصده أهل إفريقية، لوقت من السنة فيقيمون فيه أياما معلومة ويحضر بفاخر الأطعمة، ونفيس المأكّل ، ويقيم جمعهم به مدة ثم يتفرقون الى أوطانهم ، وبينه وبين المهديّة قصر الرباط يعرف شفانس دونه عندهم في المنزلة . . . وبه أمة مقيمة على صيد السمك . . . عليهما أوقاف كثيرة بإفريقية . . . والصدقات تأتيهما من كل أرض (30).

وهذا النص الذي يحمل إشارة من أقدم الروايات المحلية عن بعض تقاليد المراقبة في المنستير يميّط اللثام عن ظاهرتين : ظاهرة التركيز الشعبي على حياة الرباط . وظاهرة التضامن الشعبي العام مع حركة المرابطين .

ويضيف الى معلوماتنا عناصر جديدة في مقدمتها :

- أ - يذكر ابن حوقل قصرا جديدا مجاورا للمنستير هو رباط سقانس له أهمية كبرى، وتقاليد خاصة، وتربطه بالمنستير وروابط معينة من بينها : وجود أوقاف مشتركة بينهما .
- ب - استمر رباط المنستير في أداء دوره كاملا شاملا كمركز نشاط وجذب لكثير من العباد

الصالحين والمجاهدين الذين اتخذوه مقرا دائما لهم على مدار الفصول.

ج - حرص سكان حاضرة القيروان على المجيء الى المنستير في مناسبات معينة من السنة قد يكون من بينها بعض أيام الجمع والأعياد والمواسم كموسم عاشوراء ، وشهر رمضان المعظم .
د - وأثناء مشاركة زوار الرباط في الحياة الجماعية للمرابطين حاولوا ادخال عناصر التجديد وتلين نمط الحياة التقليدية القاسية لهم بتلك المآدب الشعبية التي كانت تقام بهذه المناسبة، وتكون فرصة للمرابطين ، ليأخذوا نصيبا من هذه الأطعمة الفاخرة والمأكولات النفسية التي كان يجلبها زوار الرباط معهم .

د

ر

أما دفع الصدقات والزكوات للمرابطين في قصر المنستير، ورصد الاوقاف الخيرية لينفقوا من دخلها، فهي من تقاليد الرباط الاسلامي عموما . . . ولم تبق الآن تقليدا الا في حياة المساجد والزوايا . . .
- بعض أنماط النشاط في رباط المنستير.

والجانب الهام الذي يكشف عنه ابن حوقل وغيره . . . هو جانب العمل في الرباط للاكتفاء الذاتي في الغذاء . فهولاء مرابطو قصر شقانس قد أعطوا المثل بعملهم البناء في مجال صيد الأسماك . وقد يصدق ذلك على مرابطي المنستير بسبب القرب من البحر، والحاجة الى الغذاء، ومجاورة القصرين ، ويعضد ذلك أن بعض النصوص تشير الى نوع خاص من السمك كان يصاد في ساحل المنستير، وكان بعض مرابطي قصر لمطة الموسرين وهو ابن هرون الأندلسي يرغب فيه فكان يرسل في طلبه من هناك (31) .

- و من اشارة البكري لملاحه لمطة القريبة من المنستير، التي كانت ترتادها السفن وتغادرها محملة بكميات كبيرة من الملح . . . توزع على مختلف الجهات ، لنا أن نتصور بأن بعض مرابطي المنستير خاصة المعسرين منهم قد يكونون من بين المساهمين في العمل لتنشيط انتاج عمل الملاحه، على اعتبار أنها تضمن لهم موردا للنفقة، ولايتعارض نشاطهم فيها مع واجباتهم الدينية بسبب القرب من البحر ومن الرباط أيضا. وصيد الأسماك ، وتنشيط العمل في ملاحه لمطة، لم يكونا المظهرين الوحيدين للعمل بالنسبة لمرابطي المنستير بل تضاف اليهما فلاحه الأرض : أرض الأجوار، برضاهم ، والأرض القريبة من حي القصر، أما أراض الحمي نفسها، - أي الملاصقة للقصور، فيجوز استغلالها حسب بعض الآراء الفقهية المحلية، من طرف المرابطين الفقراء المضطرين فقط اذا كانوا لا يحدقون أية صعة تكفل لهم رزقا يتقنون به على حياة المراقبة . وهذا مايفهم على الأقل مما كتبه أبو الفضل يوسف بن مسرور اللخمي في كتاب « أحمية الحصون » ونقله عنه شيخ مؤرخي تونس ح. ح عبد الوهاب في قوله « اني نظرت في هذه الأحمية التي على ساحل البحر، فرأيت أن أحسن الأمور لمن يسكنها، ألا يقيم بها الا و معه ماينفق فيها على نفسه ، ويكون ذلك من حلال ، فان مسته فاقة رأيت له ان كان ذا صنعة أن صنعته ، ويأتي بما يصيب من عمل يده ، فينفق منه على نفسه ، فيكف

المرابطة ، ويسلم من شبهات الحرام ، وإن لم يكن له قوة بدن ولا صنعة فليخرج وليحترث مايكفيه عند بعض اخوانه فهذا أحب الي من الحرث في الحمى لما فيه من الشبهة » (32).

وتشدد المالكية كما يبدو من خلال رأي ابن مسرور، في هذه الناحية يفسره حرص أكيد على تحري الكسب الحلال ، واتقاء الشبهة ، وسد الذريعة حتى لا يتسرب الى مجتمع الرباط الفاضل ، انتفاعيون يتقمصون شخصية المرابطين ، ليستغلوا بعض امتيازات الرباط ، ومنها أراض الحمى . ولهذا رأي بعض المالكية مثل ابن مسرور أن الحل الأسلم الذي يثبت به أجر الرباط ، أما التوجه الى الصناعة للقادرين العارفين وهذا أنفى للشبهة ، وأقرب الى الحلال ، أو فلاحه ما يكفي للنفقة من أراض الأجوار . . . وهذا يتماشى مع نسق التقاليد المحلية واسمائها في كامل ربوع المغرب الاسلامي حتى وقتنا الحاضر.

والملاحظ أنه على عكس حياة الرباط في ثغور المشرق ، حيث يثبت الناس بالاقطاع قرب الثغور، دون حرج اسنادا للمرابطين وتقوية لهم ، نجد تزمنا واضحا في بعض تقاليد الرباط الافريقي ، حيث يتحرج بعض فقهاء المالكية حتى من استغلال أهمية الحصون .

ومن اشارة وردت في البكرى عن جناح خاص في رباط المنستير تقيم فيه النساء المرباطات قد يستنتج الباحث وجود نمط آخر من العمل هو العمل النسائي مثل الغزل ، والخياطة والحياكة على قدر ما يسد حاجتهن ، وربما حاجة مجموعة من المرابطين في القصر، وقد يزيد انتاجهن فيصرف خارج الرباط لمن يحتاجه مما يعني أيضا . . إمكانية قيام حركة تبادل مع خارج الرباط .

أشكال التعارن مع حركة المرابطين .

وحرص المرابطين والمرباطات على العمل اليدوي الحلال بقدر ما يحقق الاكتفاء الذاتي نسبيا لمجتمع الرباط ، لا يعني عدم وجود حركة تضامن شعبي معهم ترمينا لدورهم الدفاعي ، واحتسابا للأجر الأخروي .

وقد اشرنا من قبل الى اسناد سكان القيروان لحركة المرابطين في المنستير وشقا نص بأموال الصدقات والزكوات .

كما أشرنا أيضا الى اسناد بعض سكان ولاية افريقية لجهود المرابطين بواسطة رصد مصادر دخل ثانية لهم عن طريق الأوقاف الخيرية (أنظر ما قبله) .

ونضيف هنا بأن التضامن مع حركة الرباط قد تأخذ أشكالا أخرى منها:

المساهمة مع المرابطين في الدفاع الذاتي لرد عادية المغيرين ، وهذا ما يفهم على الأقل مما ذكره ابن مسرور اللخمي أحد مرابطي قصر سهل ، عن زيارة خاصة قام بها الى سوسة ونص كلامه « كنت بسوسة مرة فجاءت مراكب الروم ، ومشت في البحر أمام البلد فخاف الناس من العدو ، فأخذ الوالي أهل سوسة بالحراسة نوبا في كل ليلة . . . كان المرابطون في ذلك الوقت قلة . . . فلما سمع أهل القرى بذلك جاؤا مقبلين الى سوسة ، وكثر الوافدون من أطراف البلاد، وخرجوا الى رملة

سوسة مستعدين للحرب حارسين على ذراري المسلمين من الأسر» (34).
- وتبدو أهمية هذا النص في الكشف عن حقيقتين : حقيقة استمرار حركات التحرش والقرصنة البيزنطية، التي مآتها : استضعاف قوة المسلمين الدفاعية، وحقيقة استمرار اليقظة المحلية لمواجهة تحديات البحر وطوائره وما أكثرها - اما المواجهة لحركات القرصنة، فكانت حسب النص تتم على مستويين المستوى الرسمي المحدود والمستوى الشعبي العام، وهذا اذا كان المرابطون في وضع لا يمكنهم بسبب قلة العدد. من الدفاع الناجع، والصمود الرادع لقوات القرصنة البيزنطية.

ومن أشكال التضامن مع حركة الرباط مساهمة السكان في احياء يوم عاشوراء في رباط المنستير، الى جانب المرابطين، حيث كان لهذا اليوم موسم عظيم، وتجمع كبير، على حد تعبير البكري (35). أن الباحث لا تحفى عنه عاطفة التضامن المذهبي من خلال هذا الاحتفال بمناسبة يعتبرها أهل السنة بمثابة احياء لعيد النصر، نصر السنة، والمالكية ضد مظاهر التشيع الاسماعيلي، بفضل نجاح حركة المعز بن باديس ضد المستنصر بالله الفاطمي.

ولقد كان يوم عاشوراء بالنسبة للشيعة عموما - وما زال - يوم حداد وانفعال وتحرش، وتقشف. فلا أقل من ان يصبح بعد عودة التسنن الى افريقية، موسم زينة وفرح، وتوسعة، وتقرب الى الله بأنواع القربات، وضمنها قضاء فترة في الرباط، ايماء الى دورة التاريخي المشرق في معارضة وجود الفاطميين، وفي مقاطعتهم مذهبيا ومدنيا.

- دور الرباط في عهد الفاطميين.

وهنا يلاحظ أن الرباط قبل عصر الفاطميين، كان من بين مؤسسات الدولة ويعمل رجاله في خدمتها في ميدان خفر السواحل، أما في عهد الفاطميين، فقد أصبح الرباط مصدر قلق للسلطة، وقلعة من قلاع المعارضة لسياستها بل و لوجودها. - وقد انضاف الى دوره التاريخي المعتاد في حماية السواحل من غارات العناصر المسيحية دور آخر لا يقل نبلا وأهمية في نظر الجماهير السنية، وهو حماية العقيدة الدينية، والمذهبية السنية المالكية خاصة. من ضغوط سياسة الفاطميين المؤسسة على فرض التشيع على العامة، بطرق مختلفة وغير شريفة أحيانا.

ولقد تصدر حركة المقاومة للسياسة الفاطمية، فضلا عن الفقهاء المالكية في الحواضر الكبرى، المرابطون في المحارس والحصون، وأشداهم مقاومة وعنفا، أبو يوسف جبلة بن حمود بن عبد الرحمن بن مسلمة الصدي. أحد مرابطي قصر الطوب، فقد هجر هذا الفقيه حياة الرباط اثر استقرار المهدي برقادة، وانتصب للتدريس في القيروان (36)، ولما سئل عن سر ذلك أجاب «كنا نحرس عدوا بيننا وبينه البحر، والان حل هذا العدو بساحتنا، وهو أشد علينا من ذلك» ولم يكتف حيلة بهذا بل تزعم حركة تهدف الى تهديد الناس في الاقبال على حياة الرباط في المحارس، وكان يجابه هؤلاء الذين يذهبون الى الربط بقوله «جهاد هؤلاء أفضل من جهاد الشرك». وأبدى معارضة شديدة للتطور الجديد في النظام السياسي في أول جمعة أقيمت في رقادة عندما دعي أثناءها

لأول مرة لعبيد الله بلقب المهدي أمير المؤمنين . وأعلن جبلة أمام الناس مسؤولية الفاطميين عن تعطيل فريضة الجمعة بقوله «قطعوها قطعهم الله» وهدفه من ذلك التعبئة النفسية للجماهير ضد سياسة الفاطميين الذين فصلوا بلاد المغرب عن العباسيين أصحاب السيادة الشرعية فيها. . . ودعوة هؤلاء الناس الى مقاطعة الجمع والأعياد التي يدعى لهم فيها بلقب الخلافة وامرة المؤمنين . ولقد نجحت دعوته ايمًا نجاح بين جماهير السنة الذين كانوا في معظمهم ، يكتفون بصلاة الظهر ولا يرتادون المساجد الجامعة في هذه المناسبات .

وقد غير جبلة بن حمود مجرى حياته فكان اذا صلى الصبح يخرج الى ارباض القيروان تجاه رقادة مقر المهدي الجديد ، وهو على أتم استعداد للقتال ، معه سيفه وترسه وسهامه وفروسه ، ويبقى بياض نهاره هناك ، وعند الغروب يعود الى منزله ، وعندما استغرب الناس تصرفاته وسألوه عن السبب أجابهم «أحرس عورات المسلمين منهم ، فان رأيت شيئًا حركت المسلمين عليهم» (37) .

ولكي يقنع بعض المترددين الذين استغربوا تصرفاته وتطرفه قال لبعضهم في محاولة توضيحية للاقناع «أرأيت لو نزل الروم بنا فقالوا انما ننزلون على حكمنا أو نجاهدكم ، هل كان يجوز أن ننزل على حكمهم ؟ وان عشت سترى في أحكام هؤلاء ماهو شر من أحكام الشرك » . - وموقف جبلة بن حمود يعبر عن تيار متطرف يرى النضال ضد الفاطميين جهادًا مقدسًا يفضل حتى الجهاد ضد الروم والمشركين بالله ، كما يرى أن التعبئة ضدهم ومراقبة تحركاتهم والتنبيه على خطورة مذهبهم أفضل في نظره ، من الخروج الى الرباط في المحارس والقصور، بل أن الخروج في نظر البعض يعتبر استسلامًا، واعترافًا بالبدعة، وتهربًا من واجب أوكد هو حماية جمهور السكان من غوائل الفتنة المذهبية التي يشيعها دعاة الاسماعيلية الفاطميون وقد قابل الفاطميون هذا التيار المتطرف بسياسة عنيفة تجاه الفقهاء المالكية المهيجين للعامة، وتجاه مرابطي القصور، خاصة قصر زياد، الذي شنت المهدي شمل مرابطيه ، عدا أبي جعفر القمودي وجعله مخزنًا . - أثر حركة الرباط في ميداني الثقافة والتعليم .

ومما ورد في نص البكري عن رباط المنستير، في عصر نضج حركة المراقبة، في القرن 5 هـ / 11 م يشار الى مسجد في الطبقة الثانية من الرباط «لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه» هذا الى مصلى خاص بالنساء المرباطات ضمن تلك المصليات الكثيرة في رباط القصر الكبير (38) .

والفقرة الاولى تشير الى احد تقاليد الرباط ، في الاسلام ، وهو أن يكون بمثابة كتاب أو مركز ثقافي للتوعية في شؤون الدين والدنيا، وينهض بهذه المهمة شيخ مسجد الرباط ، وقد يساعده بعض العلماء الوافدين في المناسبات على الرباط ، لأن الرباط في هذا الجانب الثقفي لا تقتصر فائدته على المرابطين ، وانما تعم كل من يقصده من داخل الولاية أو من خارجها، مثلما أصبح عليه الشأن بالنسبة للمساجد الكبرى المشهورة في افريقية وبلاد المغرب ، كجامع الزيتونة وجامع القرويين ، وكالزوايا أيضا .

ويبدو أنه كان لمصلي النساء أيضا تقاليده من الناحية التربوية بواسطة بعض المرباطات العارفات ، أو بمساعدة بعض شيوخ الرباط ، وهكذا نصل الى حقيقة مبدئية عن مساهمة رباط القصر الكبير بالمنستير، بدور هام في محو الأمية ، وفي نشر مبادئ الثقافة الاسلامية حتى بين عنصر النساء .

وبفحص كتب المناقب ، والطبقات نجد ذكرًا لجملة صالحة من الأعلام الذين كرسوا جهودهم في بث علوم الدين والعربية ، ومظاهر الثقافة الاسلامية ، ومذهب مالك في ربط افريقية ومحارسها لاسيما في منطقة ساحل القيروان .

وكثرة عددهم في قصر زياد مثلا، دفعت البعض لتسميته بدار مالك (39) . ومن بين هؤلاء الذين تولوا بناء هذا الرباط ، واعادة ترميمه ، ورابطوا فيه عبد الرحيم بن عبد ربه الربيعي المستجاب ، وقد كان من قبل تاجر بز في مدينة القيروان (40) .

ورابط في قصر لمطة القريب من رباط المنستير، أبو هرون الاندلسي، وكان من العلماء الموسرين ، وعرف بحرصه على حياة رغبة حتى وهو في الرباط (41) .

- ورابط بقصر الطوب بجوار سوسة محمد بن سحنون وقبل انه زار الرباط في مناسبة على بغل ، فصادف وجوده ظهور حركة قرصنة رومية مفاجئة لم يتمكن من تجنيد الناس بسرعة لمواجهة ورغم ان هذا العالم قد تمكن من الاسهام بجهد ، في دحر الغزاة على تقل حركة المركوب وعدم قابليته ، الا انه حلف مع ذلك الا يأتي مرة اخرى الى الرباط الى على فرس (42) .

- ورابط في المنستير، المؤرخ والطبيب الافريقي احمد بن الجزائر، كما رابط فيه وفي قصر سهل ابو الفضل يوسف بن مسرور اللخمي ، فكرس جهده للتعليم ، وللتأليف عن فضل العلم والعلماء ، وعن أهمية الحصون .

وقد غدا هؤلاء العلماء وغيرهم ممن لم نذكر، محورا لحركة علمية وثقافية نشيطة جذبت الى مجتمع الرباط كثيرا من العباد والزهاد ، ومحبي العلم والثقافة الاسلامية ، جاءوا من أرجاء ولاية افريقية ، ومن خارجها ايضا . . . ومن بين هؤلاء الذين انجذبوا الى الرباط من خارج الولاية ، أبو جعفر أحمد الكوفي الذي قيل انه استقر في المنستير (43) .

ثم ابو الاحوص احمد بن عبد الله المغربي الذي قيل انه سكن سوسة واتخذها موطن قراره النهائي (44) .

وبجانب من ذكرنا من العلماء الذين كانوا زينة حركة الرباط ودليلها يذكر البكري نصا عن (جماعة من الصالحين والمرابطين قد حبسوا انفسهم في المنستير منفردين دون الاهل والعشائر، (45) حتى ليخيل لنا وكأننا امام حركة رهبنة حقيقية يتعشق رجالها، ونساؤها، حياة العزلة وربما العزوة . . .

وحياة هذه الجماعة ان كانت قد جذبت انتباه المواطنين والرحالة حتى غدت مضرب مثال في البساطة وفي المعاناة، وفي الاقتصار على ابسط الضروريات . فانها ايضا اهتمت فيما بعد رجال التصوف والنسك المنقطعين الى الله، وزودت العلماء بإداة غزيرة لأعمالهم العلمية، وهكذا نصل الى حقيقة جوهرية عن مساهمة حركة الرباط في إثراء الثقافة العربية الاسلامية، وفي بعث حركة التأليف، عن المرابطين والعلماء والزهاد والعباد والصلحاء في افريقية وبلاد المغرب تلك الحركة التي نشطها يدافع وطني وديني، علماء محليون، مثل ابي العرب تميم، وابن مسرور اللخمي، وابي القاسم الليدي، والمالكي، والدباغ، وابي علي بن الوكيل، وابن ناجي وغيرهم . . . واصبح مآكثوه من انتاج الموارد الاولية للتاريخ لبدایات حركة الزهد . وملاحمها الرئيسية كما ظهرت في مهدها التاريخي الاول في مجتمع الرباط وهذا فضلا عما حفلت به كتبهم من حصائل تراثية محلية بعضها ينتمي الى مجتمع الرباط وظهرت في حلقات مساجده . . . وهذه الحصائل، هي اما قصص عن سير المرابطين والعباد ترفع بعضهم الى مكانة سامية، او احاديث وآثار بادية الوضع عن فضل الرباط في ساحل افريقية خاصة عن رادس، والقصر الكبير بالمنستير، وكيف ان ثواب الرباط، يعدل اجر النين والصديقين والشهداء والصالحين، ويضاف الى هذين النوعين : القصص والآثار المحلية، اقوال صدرت عن علماء محليين يعظمون من خلالها قدر علماء البلاد . . . وصلحها رعاها، ورواتها، على نحو مناسب الى سحنون بن سعيد الذي قال «كان بافريقية رجال عدول، بعضهم بالقيروان وبتونس، وطرابلس ولو فرنوا جمالك بن دينار لساووه . وقال الجبنياني «لقد أدركت هذا الساحل وما منه قرية الا بهار جل او اكثر - من اهل العلم، ومن اهل القرآن، او رجل صالح، يزار . (46) .

- وما يشد الانتباه بل ويشير الاعباء- اب حقا هو شدة اعتزاز هؤلاء الكتاب بانتهاءاتهم الافريقية، وبمساهمة ابناء وطنهم في بناء صرح ثقافته وتراثه . . . كدار جهاد ورباط وعلم . (47) .

■ تقويم وتساؤلات .

لقد ادت حركة الرباط الافريقي دورها الدفاعي كاملا، كما ساعدت على خلق مظاهر التعبئة النفسية والدينية والمادية تلك التي هيات لامراء بني الاغلب منذ عهد زيادة الله الاول الجو المناسب لنقل حركة الجهاد البحري - ثمرة تجربة الرباط - الى قوصرة وصقلية وقلورية وانكيدة، فيما يعتبر حريا تأرية او ضدية منظمة ضد الروم والفرنج . - وهذا على عكس حركة الرباط في منطقة الثغور في شمال الشام والجزيرة حيث لم تتمكن في اي وقت من الاوقات، من تغيير جذري للحدود السياسية والجغرافية والدينية وبقيت عمليات المناغرة أشبه بالعمليات الروتينية، كما بقيت القسطنطينية، او رومية الصغرى رافعة الراس حامية للحضارة المسيحية الشرقية، حتى نهاية العصور الوسطى .

- والذي يدعو الى التساؤل والاستفسار بصدد حركة الرباط الافريقي، هو لماذا لم توجد نصوص محلية مكتوبة عن نظم الرباط والمرابطة، وتقاليدها، ومزاياها، بحيث يعرف الباحث من خلالها مثلا عدد ساعات الحراسة، وعدد ساعات التعليم، واوقات الاعتكاف ثم اوقات العمل ومداهها . . . وايضا، هل كانت العزوبة شرطا في حياة الرباط بالنسبة للجنسين . مثلما هو الحال بالنسبة بالحركات الرهينة والديرية المسيحية، ان وجود نساء مرابطات في قصر المنستير، وكذا

وجود جماعات منقطعين دون الامل، يدعوا الى مزيد من الاستفسار عن هذا الجانب الهام في تقاليد الرباط الافريقي .

- اننا ايضا نفتقر الى نص محلي عن النظام الاداري للربط والمحارس الافريقية، وهل قام في ساحل افريقية تنظيم يشرف عليها وينسق بينها على نمط تنظيم ولاية الثغور والعواصم في المشرق - وقاعدتها انطاكية... هذا بصرف النظر عما اصبح لسوسة بعد تمصيرها، وبناء دار صناعتها... من دور هام في حياة ربط ومحارس الساحل المجاور لها حتى ان القصر الكبير بساحل المنستير او روسيتا البيزنطية، قد مهد لحركة عمران حربي. ومدني ظلت تتسع وتنمو حتى غدت هذا المصير العربي الاسلامي الكبير، الذي يشد الانتباه بعمرانه المستبحر، ويمداه العظيم في الانبعاث والاتساع والاتساق، وفي الثورة ضد كل مظاهر الجمود والتخلف.

الهوامش

- (1) - اليعقوبي : كتاب البلدان ص 103 . ط النجف .
- (2) - ابن عذاري : البيان للمغرب ج 1 ص 104 - 105 ط المناهل .
- (3) - اليعقوبي : المصدر السابق ص 100 - 102 .
- (4) - البكري : المغرب في وصف بلاد افريقية والمغرب ص 40 ط د و سلان .
- (5) - البيان المغرب ج 1 ص 85 - 87 .
- (6) - نفسه ، ص 112 .
- (7) - البكري : المصدر السابق ص 39 .
- (8) - ابن عذاري : المصدر السابق ج 1 ص 105 - 111 .
- (9) - نفسه، والخراسانية عرب، وليسوا كما زعم ابن خلدون - من صنهاجة - واحفادهم هم الذين استبدوا بتونس عقب سقوط دولة المغز بن باديس باعتداء عرب بني هلال واسسوا دولة طائفة اسقطها الموحدون فيما بعد .
- (10) - نفسه . ص 110 .
- (11) - تاريخ اليعقوبي ج 3 ص 142 - 143 .
- (12) - ابن حوقل : صورة الارض ص 72 - 73 ط بيروت .
- (13) - ابن عذاري : المصدر السابق ج 1، ص 111 - 112، البكري : المصدر السابق، ص 40 .
- (14) - الدباغ : معالم الايمان ج 1 ص 7 . وانظر غيره ايضا .
- (15) - اليعقوبي : البلدان ص 115 .
- (16) - الزرخشري : أسرار البلاغة مادة حصن ط خ .
- (17) - ابن عذاري : المصدر السابق ج 1 ص 86 .
- (18) - نفسه ص 110 .

- (19) - ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص 231 - 232 .
- (20) - ابن حوقل : المصدر السابق ص 72
- (21) - نفسه ص 73 .
- (22) - ابو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ص 52 ، الدباغ ، والمصدر السابق ، ج 1 ص 4 .
- (23) - الدباغ : المصدر السابق ج 1 ص 202 نقلا عن رياض النفوس للمالكى .
- (24) - ابن عبد الحكم : المصدر السابق ص 258 - 272 ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج 4 ص 31 عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب ص 96 - 97 .
- (25) - الدباغ : المصدر السابق ج 2 ص 130 ، حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص 132 نقلا عن رحلة التيجاني ح - ح . عبد الوهاب : ورقات ج 2 ص 90 - 91 .
- (26) - انظر البلدان ص 102 ط النجف .
- (27) - انظر صورة الارض ص 73 .
- (28) - الدباغ : المصدر السابق ج 2 ص 133
- (29) - البكري : المصدر السابق ص 36
- (30) - انظر : صورة الارض ص 74 - 75 ط بيروت .
- (31) - ح . ح . عبد الوهاب : ورقات ج 2 ص 106 .
- (32) - نفسه ج 2 ص 149 .
- (33) - المغرب في وصف بلاد افريقية والمغرب ص 36 .
- (34) - ح . ح . عبد الوهاب : ورقات ج 2 ص 148 نقلا عن رياض النفوس للمالكى .
- (35) - المغرب في وصف بلاد افريقية والمغرب ص 36
- (36) - الخشني : طبقات علماء افريقية . . 246 ط تونس .
- (37) - ابن عذاري : المصدر السابق ج 1 ص 400 ط بيروت ، وانظر ص 222 ، الدباغ : المصدر السابق ص 185 ، وما بعدها - عياض ترتيب المدارك مجلد 2 ج 3 ص 247 وما بعدها .
- (38) - المغرب في بوصف بلاد افريقية والمغرب ص 836
- (39) - حسن محمود : المرجع السابق 132 نقلا عن رحلة التيجاني .
- (40) - ابو العرب تميم : المصدر السابق 236 ط تونس .
- 41 - المالكى : رياض النفوس ج 1 ص 422 ، ح . ح . عبد الوهاب : ورقات ج 2 ص 106 .
- (42) - نفسه 248 ، ح . ح . عبد الوهاب : المرجع السابق ج 2 ص 88 .
- (43) - ابو العرب : المصدر السابق ص 136 ط تونس .
- (44) - نفسه 244 ط وتونس .
- (45) - انظر : المغرب . . . ص 36 .
- (46) - ابو الغرب تميم : المصدر السابق ص 54 ط تونس ، وايضا انظر ص 48 ، الدباغ : المصدر السابق ج 1 ص 4 ح ح عبد الوهاب : ورقات ج 2 ص 125 نقلا عن مناقب الجبنياني .
- (48) - وكأن هؤلاء الكتاب بدافع وطني ، يريدون عمليا دحض ماشاع في كتابات اخرى تصور افريقية بؤرة جهل وفتن ، ودار تفرقة وغدر ، وعش ضلال ، وذنب طائر ، صدره وقلبه في ارض اخرى . . . في بلاد المشرق العربي الاسلامي .